بسم الله الرحمن الرحيم

يقول علماء الجمال فى تعريفه :

«**الجمال**» : ما أخَذَ البَصَر ؛ أى : ما استرعى النظر وجذبه إليه .

«**والجميلة**» : هى التى تأخذ بصرَك جُملة على بُعد ، فإذا دنَت لم تكن كذلك !

أما «**المليحة**» ، فهى التى إذا كرَّرْتَ فيها بصرَك زادك حسنا ، كما يقول الشاعر :

يزيدك وجهُه حُسْنًا إذا ما زدتَه نظرا

وصفوة أقوال الأقدمين :

أن «الجمال» عندهم : ما يُدْرَك بالنظرة الأولى ، ويتعلق بالشكل العام .

وأن «الحُسن» يتناول كل الأجزاء بالتفصيل ، ويعرف بترديد النظر ، وفضل التأمل .

ولم يَفُت الأقدمين أن يخصوا كل عضو بصفة ، فقد قال ابن الأعرابى : الحلاوة فى العينين ، والجمال فى الأنف ، والملاحة فى الفم ، وزاد آخر : والظَّرف فى اللسان !

وربنا – سبحانه – جميل يحب الجمال كرم الإنسان ، وفضله على كثير ممن خلق تفضيلا .

وصوّره وأبدع خلقه ، فسبحان الذى خلق فسوى .

ومن قديم والإنسان يهيم بالجمال ، ويُشْغَف بالحسن أنّى وجده !

ولقد كانت نظرة الإنسان الأولى للأشياء على وجه الإجمال ، فلما تقدم به الزمان أخذ ينظر إلى الأشياء تفصيلا ، وراح يتعقب مواطنَ الجمال فى كل عضو من الأعضاء !

وإذا كان أجمل الأحياء «الإنسان» ؛ فإن أجمل ما فيه عيناه !

وإذا كان لكل شيء «خلاصة» ، فخلاصة الإنسان عينه !

وكيف لا ، وهى مستودع سره ، ومرآة حياته ، والنافذة التى يُطل منها الآخرون على ما نكنه فى أعماق نفوسنا من عواطف ، وميول ، ورغبات ، واتجاهات ، وأحلام ، ومشاعر !

إنها التُّرجُمان الذى يعبر عما يجول فى النفس من عواطف !

وهى وسيلة الرؤية ، ومرآة القلوب ، ونور البصر والبصيرة ، وحسبها أنها الحاسة التى تساعد على الاستمتاع بالحواس الأربع الأخرى !

وهى التى ليس فى الحَواسّ سواها يستحق أن يُعشق أو يحب ! وهى التى تزيد من حمد الله على نعمه التى لا تحصى ولا تعد من محسوسات أو مرئيات تتوالى ، وتتنوع ، وتتلون ، وتظهر ، وتختفى ، وتسرع وتبطئ أمام ناظريه ، وهو جالس مكانه لا يريم ! وهى التى تنوب عن الرُّسل ومن ينوبون عنا ، ويدرك بها المراد .

ومع أن الحواس الخمس أبواب إلى القلب ، ومنافذ نحو النفس ، فالعين أبلغها ، وأصحها دلالة ، وأوعاها عملا .

وهى رائد النفس الصادق ، ودليلها الهادى ، ومرآتها المجلوة التى بها نقف على الحقائق ، ونميز الصفات ، ونفهم المحسوسات ، وقد قيل :

«**ليس الخبر كالعيان**» .

وقالوا : «**إن عيناً واحدةً بصيرة تقود ألف أعمى**» !

ويقول القزوينى فى «**عجائب المخلوقات**» :

لما كانت الحاجة ماسةً إلى «العين» اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون فى غاية الرقة واللين .

ووقاها بضروب كثيرة من الوقاية ؛ فوضعها فى حفرة من العظم وجعل حولها عظاما صلبة .

وغطّاها بالأجفان ، وصانها بالأهداب .

وجعل للإنسان عينين اثنتين ، حتى لو أصابت إِحْدَاهُمَا آفة بقيت الأخرى سليمة .

وجعلها فى الرأس ، لأن حاسة البصر بمنزلة الديدبان ، وكلما كان أعلى مكانا كانت مسافة مبصراته أكثر ، ولأن أعصاب العين النازلة من الدماغ رقيقة جدا لا تتحمل الامتداد إلى مسافة بعيدة .

وقد وضعت العينان أمام البدن لتكون حارسة للأعضاء التى غطاؤها ضعيف كالبطن وغيره ؛ ولأن عمل الأعضاء الخارجة كاليد والرجل من قدّام لتكون مشاهدة لأعمالها ، فسبحان الخالق البارئ المصور !

ولم تظفر حاسة من الحواس بمثل ما ظفرت به العين من الاهتمام بها، والتعبير عما تقوم به من إبصار أو رؤية ، أو نظر ، وما لها من تأثيروخطر فى حياة البشر .

ودليل ذلك آيات القرآن الكريم ، والأحاديث النبوية الشريفة .

وقد شغلت العيون الأدباء والشعراء والمؤلفين ، كما تناولتها الكتب الدينية منذ قديم السنين .

وما ذلك إلا لأنها ..

تَعِد ، وتُوعِد ..

وترغّب ، وتُرَهّب ..

وترسل مرةً شُوَاظًا من نارٍ ..

ومرةً شآبيب[1] من عَطْفٍ وحنان ..

تقسو وترحم ..

وتُنعم وتؤلم ..

وتَصِل وتَصُدّ ..

وتُقبل ، وتنفر ..

---

(١) جمع شُؤبوب : الدفعة من المطر .

وتعجب ، وتحتقر ..

تتلون ، وتتشكل ..

وهى للمرأة أقوى سلاح !

وكما شغلت الأدباء والشعراء من المحبين والعاشقين شغلت اللغويين فسمى أول معجم باسمها ، وصارت لغتنا العربية من أكثر اللغات وفاء للعين ، واعترافا بعلو شأنها .

وكيف لا ، وهى عضو الإبصار الذى به نتمكن من تنفيذ أول أمر نزل به القرآن الكريم ﴿ اقرأ ﴾ [القلم: ١] .

ولقد بلغ من اهتمام اللغويين بالعين وما يُستَحْسَن فيها من الصفات ، وما يستقبح أنهم عبروا عن كل نظرة بعبارة ، وضربوا بها الأمثلة ، وكنّوا عنها بالكنايات !

وكما عُنيت اللغة بالعين ، وما يتصل بها عنى الأدب كذلك ، فهام الشعراء بالعين ، وتغزلوا فيها من عهد امرئ القيس الذى يقول :

*** وعَيْنٍ كَمِرْآةِ الصَّنَاعِ(*) تُديرُها ***

إلى عصرنا الحديث بدءاً بحافظ إبراهيم «شاعر النيل» الذى يقول :

غُضِّى جُفُونَ السِّحْرِ أو فارحَمِى

مَتَيِّمًا يخشَى نِزالَ الجُفون

وانتهاء بشاعرنا «صاحب لغتنا الجميلة» الذى يقول :

سمعتُ عينيك وما قالتا

سمعتُ كُلَّ الهَمْسِ خلفَ الجفون!

وها نحن أولاء نفرد للعين هذا المؤلف الذى يملأ العين ، وتقَرّ به ؛ ليكون موسوعة لغوية وأدبية تضم كل ما يتصل بالعين من قريب أو من بعيد ، فجاء جامعا للتشبيهات البلاغية وللحقائق العلمية ، وللطُّرفة الأدبية ، وللمعلومة اللغوية ، وللتحليلات النفسية ، وللأحكام الدينية مما لا يكاد يجتمع فى كتاب!

(*) الصَّنَاع : الماهرة المدبرة .

وقد ضم خمسة فصول بعد المقدمة على النحو التالى :

* بين يدى العيون ..

* الشعراء المحبون بين حديث العيون وهمس الجفون !

* من الدموع محدث ومن الحديث دموع !

* طرائف ولطائف من دنيا العيون تسرى عن المحزون !

* النظرة الأولى لك ، والثانية عليك ..

* الخاتمة (العين فى اللغة ، والقرآن الكريم ، والحديث الشريف) .

إنه مَعْرض فِنى من أغنى المعارض ، وإن لم يتناول إلاالعيون وحديثها ، والنظرات وأسرارها ، والأحداق وسهامها ، والجفون وهمسها ، والأهداب وشراكها كما تراءت للمحبين والمعجبين والهائمين فى العيون وسحرها !

وإن يكن هناك من فضل فهو فضل الجمع ، والتنسيق ، والتقديم ، والاختيار !

وحسبى أننى لم أعرضِ منِ الشعر إلا العفيف الذى يفتح عين المسلم على ما أحل الله له ، حتى يحسِن الاختيار فذلك أحرى أن يؤدم بينهما ، وأسأل الله التوفيق .

محمد إبراهيم الدسوقى

القاهرة فى أول ذى الحجة ١٤١٩ هـ
١٨ من مارس ١٩٩٩ م